تواصل (المدى) نشر هذا الكتاب الذي يقدم صورة عن ذكريات وانطباعات وآراء بول بريمر حول فترة عمله في العراق وتهدف (المدى) عبر ترجمتها ونشرها الكتاب إلى إتاحة الفرصة لقرائها للاطلاع ، كما تتيح المجال للباحثين والمحللين وسواهم من المعنيين لمراجعة مادة الكتاب فكرياً ونقدياً.. وبهذا تؤكد (المدى) ان جميع الآراء والمعلومات التي يقدمها بريمر هنا هي تعبير عن وجهة نظره الشخصية التي لا تلتقي مع وجهة نظر (المدى) التي واكبت فترة حكم بريمر وما بعدها بالنقد الصريح المعروف عن الجريدة وعن سياستها الواضحة في هذا المجال.

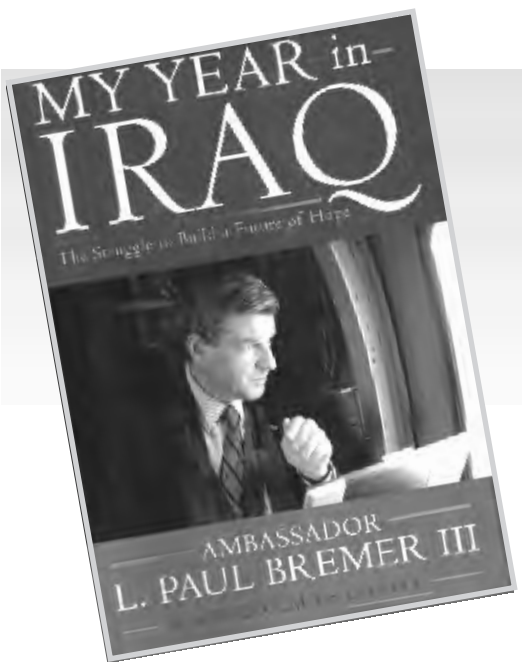

كتاب بول بريمر الصادر حديثاً حول تجربة عمله في العراق

سنتي في العراق

الصراع لبناء مستقبل من أمل

تأليف/ بول بريمر
ترجمة /د. عابد اسماعيل

(الحلقة السادسة و الثلاثون)

وفي واحدة من معجزاته ، كان بات كيندي قد رمّم جميع أجهزة الترجمة في الغرفة ، (بالرغم من أن الساعات المعلّقة كانت لا تزال واقفة ، بشكل غير مفهوم ، عند الثانية عشرة واثنتين وثلاثين دقيقة ، بعد الظهر). كان بإمكان الوزراء الذين لا يتحدثون الإنكليزية أن يسمعوا مترجمينا المحترفين ، التابعين لوزارة الخارجية ، وهم يحوّلون الكلمات الإنكليزية إلى العربية- مباشرةً بعد تحيتي المبتسمة بعبارة "صباح الخير." في الصيف ، كنتُ قد بدأتُ أدرس اللغة العربية ، المحكية ، لمدة نصف ساعة ، كل صباح في السّابعة ، بعد حصة الجري ، وبعد قراءة رسائل الليلة السابقة.

بعد تقديم التهنئة لهم، قلتُ للوزراء أنني أقدر شجاعتهم، ودأبهم على إعادة إعمار العراق. "أنتم الآن مسؤولون عن اتخاذ قرارات يومية في وزاراتكم، سيكون لها أثر على حياة جميع العراقيين. لكم السلطة الكاملة في تحديد ميزانياتكم واختيار الموظفين." لكنني حذرتهم أنه يجب أن يُطلعوا كبار المستشارين في سلطة التحالف المؤقتة، بشكل مسبق، عن أية مبادرة متعلقة بالسياسة العامة.

"سواء أحببتم ذلك أم لم تحبوه- ليس ممتعاً البتة أن تكون واقعاً تحت الاحتلال، أو أن تكون أنت نفسك المحتلّ- مازال التحالف هو السلطة العليا هنا."

رحّب العديدُ من الوزراء بهذا الاجتماع، وشكروا الرئيس بوش ورئيس الوزراء البريطاني بلير لتحرير بلادهم. آخرون كانوا مهتمين أكثر بميزانية المساعدات الإضافية التي وضعها الرئيس أمام الكونغرس.

"ماذا سيكون دورنا في تخصيص هذه الأموال؟" سأل وزير المالية كامل الكيلاني.

والسيد الكيلاني رجل أعمال سنّي، في منتصف الأربعينيات من عمره، ينحدر من عائلة عريقة، ويحمل درجة علمية في الإدارة والاقتصاد، وكان قد عُين في المنصب بفضل دعم قريبه، أحمد الجلبي. "لقد عملنا عن كثب مع الوزراء بالوكالة ومع الموظفين المدنيين العراقيين، في كل وزارة، للخروج بقائمة مشاريع،" قلتُ لهم، مضيفاً أننا نرحب بالمزيد من اقتراحاتهم. وأكّدتُ أننا طورنا ميزانية الحكومة للعام ٢٠٠٤ مع زملاء لهم، وحيث أننا نتوقع أن تكون مضغوطة جداً، فإن لكل وزير الصلاحية بتدوير الأموال داخل وزارته المخصّصة. "لقد أعطيتُ زملائي تعليمات واضحة بأن يقوموا بمساعدتكم بأية طريقة كانت. إنّ نجاحكم نجاحنا."

أخيراً، قلتُ للوزراء أنه في ذلك الصباح بالذات، اتخذ مجلس الحكم خطوة كبيرة بالموافقة على حزمة الإصلاحات الجذرية التي تقدم بها بيتر مكفرسون، وأهمها إلغاء الحظر الذي فرضه صدام على الاستثمار الأجنبي.

عبّرتُ عن الامتنان لأحمد الجلبي الذي أشرف، بناءً على طلبي، على الحقيبة الاقتصادية بصفته رئيساً للجنة الفرعية المنبثقة، عبر مجلس الحكم، ومساعدة الرئيس بوش في الدفاع عن طلبه بالمزيد من المساعدات الإضافية.

ذاك كان الجلبي في أحسن حالاته.

بعد الاجتماع، عقدت مجموعة من المستشارين اجتماعاً حول الطاولة، لمناقشة الجلسة.

"أعتقد أنها بداية جيدة مع الحكومة الجديدة،" قلت.

كنت حريصاً على اللقاء بأكبر عدد من الوزراء الجدد، طالباً من فريق عملي تنظيم اجتماعات في هذه الوزارات. وكانت هذه صورة مناقضة لما اعتاد عليه صدام في استدعاء وزراء مرعوبين، للمثول أمامه. كما ساعدني ذلك في الخروج إلى بغداد، والتجوال في ضواحيها، لأكبر عدد من المرات.

كان من بين أبرز الوزراء في الحكومة الجديدة هو هاشم الشبلي، وزير العدل. والسيد الشبلي محام سنّي، في منتصف الأربعينيات من عمره، عمل لأكثر من عشرين عاماً في شركات خاصة في معظم بلدان المنطقة. رحّب بي في مكتبه، الخالي تقريباً من الأثاث، في الطابق الأرضي لوزارة العدل، ورحنا نحتسي كأساً قسرية من الشاي الساخن.

"سعادة السفير، هذه هي أولوياتي أعرضها لك للنظر فيها،" قال، حين بدأنا النقاش في الأمور العملية. كان يريد مساعدتي في تقوية المحاكم الإدارية، وتحسين حقوق المشورة القانونية للمتهمين، والإسراع بمراجعة ملفات المحتجزين العراقيين لدى قوات التحالف.

"إننا نشاطركم الأهداف نفسها، سعادة الوزير."

لكن الشبلي حذّر بأن صدّام شلّ النظام القضائي وأرهب القضاة.

"إن التحالف يدرك جيداً المشكلة،" أجبتُ، وذكّرتُه أننا أنشأنا في الأول من حزيران هيئة قضائية للتدقيق في سجلات أكثر من ٨٦٠ قاضياً.

"قمنا بمراجعة ملفات معظمهم الآن، ووافقنا على أكثر من ٦٠٠ استمارة للخدمة في المحاكم الجديدة."

"لقد سمعتُ عن ذلك وأرحّبُ به. لكننا نحتاج للمضي قدماً، وأن نفصل إدارة المحاكم عن الحكومة، بحيث نجعل النظام القضائي منفصلاً عن هذه الوزارة."

كنتُ سعيداً لسماع ذلك. أن يقوم بيروقراطي من الشرق الأوسط بالتخلي عن السلطة طواعية، كان يمثل بحد ذاته تغيراً معتبراً. وشجعته على التعامل مع محامينا، للتحضير لمرسوم أوقعه لاحقاً، يقضي بإنشاء سلطة قضائية مستقلة.

واختتم الوزير الاجتماع بقوله، "من فضلك، تذكر هذا، سفير بريمر: إننا نتطلع إلى الولايات المتحدة لبناء عراق جديد. إذا نجح العراق، ستهوي جميع الأنظمة العربية في المنطقة."

كان الشبلي يمثّل، بالنسبة لي، برهاناً على أنّ الطائفة السنّية تضم زعامات مهمة تعمل من أجل مستقبل العراق، ولم تلوثها عقيدة البعث.

بعد يومين لاحقين، كانت سعادتي غامرة بتوقيع أمر صادر عن سلطة التحالف المؤقتة، يقضي بتشكيل أول نظام قضائي عراقي مستقل، وكان هذا بمثابة أول مكوّن في نظام المحاسبة الديموقراطي، الذي لطالما تم تغييبه، ومن ثم سحقه، حين استولى البعثيون على السلطة.

كنت أغط في نوم عميق، في غرفة النوم المبعثرة، في منزلي، حين أيقظني انفجارٌ قوي، مرة ثانية. وتبع الانفجار مباشرة، وبشكل أوتوماتيكي، صوت مكبر الصوت، يتعالى قائلاً، "إلى الملجأ! إلى الملجأ! إلى الملجأ!"

"إنها قذائف مدفعية هاون، سيدي،" صرخ أحد الحراس الأمنيين التابعين لشركة بلاك وتر. وأشعل ضوءاً قوياً، فيما كان يصطحبني على الدرج الرخامي البارد، إلى مركز القيادة الأمنية المحصّن، الذي كان أيضاً يعمل كملجأ للمنزل ضد القنابل.

كنتُ قد ولجتُ إلى الغرفة الصغيرة، الممتلئة، حين وقعت رشقةٌ أخرى من قذائف الهاون على بعد مئتي متر إلى الشمال.

بعد خمس دقائق، ضربت قذيفة ثالثة الطرف الأبعد للمقاطعة.

كانت تلك بمثابة رشقات سريعة، فقيرة التصويب، وغير منظمة، تحدث ليلاً. لكنها لم تكن تقطع نومنا، وتذكّرنا بأن الحرب مازالت مستمرة.

حين كان مكبر الصوت يطلق إنذاره، كان جميع موظفي سلطة التحالف المؤقتة، سواء أكانوا على رأس عملهم، أو في استراحة، تحت أوامر مشددة للإسراع باتجاه قبو القصر. ولكن حين أصبحت الهجمات أمراً روتينياً، صارت هذه الحالات من الإخلاء تجري في مناخ أكثر خفة، وحتى أكثر مرحاً. كانت المجموعات تتحلق في ردهات القبو، مكملةً اجتماعات كانت قد بدأتها في الأعلى، أو تقرأ الكتب، أو تتسامر فيما بينها. وحين نسمع جميعاً كلمة "انجلى الوضع،" كنا نعود أدراجنا، ونلتحق بأعمالنا.

وبعد أن أصبح واضحاً أن معظم قذائف الهاون كانت تأتي من الجنوب الغربي لنهر دجلة، نقلت بلاك وتر غرفة نومي إلى الجانب الشمالي الشرقي من المنزل، الأقل عرضة للهجمات. كان نومي أكثر هدوءاً هناك، غير أنّ هدير مكبر الصوت، كان لا يزال قادراً على إيقاظي من أعمق أحلامي.

"ليست الأمور على ما يرام، سيدي،" تذمر دوغ براند، رئيس قسم الشرطة السابق، في يوركشير، الذي أصبح كبير المستشارين بالوكالة في وزارة الداخلية، حين غادر كيريك عمله. "إن الرجل ثور حقيقي داخل متجر للفخاريات الصينية."

كان موضوع شكواه هو وزير الداخلية الجديد، نوري بدران، الذي بدا، قبل بضعة أيام قليلة، شخصاً عالي التركيز.

"ما الذي دهاه؟ ظننتُ أنني هدأته في اليوم السابق."

"كنتُ أتمنى ذلك، يا معلّم. لكنّه خرج عن طوره، وهو يهدر ويتوعد في كل أرجاء الوزارة. إنه يطردُ الناس من عملها، وقد نسف تقريباً كل البنيان الحديث الذي سبق وأنشأناه، أنا وبيرني."

"إننا بالتأكيد لسنا في وارد الإطاحة بعملية تدريب الشرطة. سوف أنظر في الأمر، يا دوغ،" قلتُ له مطمئناً. "في هذه الأثناء، أرجو أن تبقيني على إطلاع على ما يجري."

كان دوغ، بطوله الفارع الذي يتجاوز ستة أقدام، غير قابل للابتزاز. غير أن درجة حرارتي ارتفعت فجأة حين استعرضت جميع التفاصيل التي وصفها لي. قام الوزير بدران بتغيير الدوريات الأمريكية العراقية المشتركة، ومشى عكس نصيحة القائد العسكري الذي يرأس وحدتنا المحلية. والأسوأ في ذلك، كان بدران قد عين قوة عسكرية رديفة خاصة، من دون أن يُعلِم قيادتنا العسكرية. وكان الجنرال شافيز قد تثبّت من ذلك، بعد بضعة أيام لاحقة، وقال إن الخطوة تضع قوات التحالف وقوات بدران في خطر حقيقي. وعلمتُ أيضاً أن الوزير كان قد أعلمَ فجأةً سوزان جونسون، مستشارتنا في وزارة الخارجية، أنه يريد بكل بساطة أن يغلق حدود العراق لمدة ستة أشهر، و يطرد "جميع الأجانب الذين أتوا إلى البلاد، من غير إذن."

"إنها فكرة عظيمة، من حيث المبدأ،" أخبرتُ أعضاء فريقي. "ولكن كيف يمكن تنفيذها، بحق الجحيم؟ لا توجد لدينا سياسة منح تأشيرات بعد، وبالتالي يصعب الحكم على هذه الحالات. ناهيك أننا لم نوفر شرطة حدود مدربة." وقد كانت شرطة الأمن الحدودية من أكثر قوات صدام فساداً، وكانت تقوم بجمع ضرائب الجمارك أيضاً.

"إنه نسيب إياد علاوي،" ذكّرتُ دوغ، "سوف أتحدث إلى علاوي لوضعه عند حدّه."

كان قلقي بشأن تركيز البنتاغون على "أسس" تدريب قوات الأمن قد تحقق في الثاني عشر من أيلول حين تلقيتُ مذكرة من دون رامسفيلد، موجهة إلى الجنرال أبي زيد، ولي.

من: دونالد رامسفيلد

الموضوع: تقرير متعلق بقضايا أمنية

(يبدو لي أنّ إرسال تقارير عن قضايا أمنية يجب أن يتضمن، من الآن فصاعداً، معلومات عن القوات الأمريكية، والقوات الدولية، والقوات العراقية. علينا أن ننسق فيما بينها جميعاً، لأنها تؤلف ما ندعوه قوات أمنية في العراق.

يتبع